بطاقة وملابس جديدة

د. جمال الجزيري

من الواضح أنني نزلتُ مصر في إجازة. لكن الوقت ليس صيفًا. نزلتُها في الشتاء على غير العادة، ولا أعرف لماذا أستبشر بالشتاء دون الصيف هنا! هل لأن الشتاء يليه الربيع، والصيف يليه الخريف؟ ربما كان فرحي لأن الخريف انقضى قبل الشتاء، وأن أوراقي الذابلة تساقطتْ بالفعل.

كأنني أخرج من محطة المترو في ميدان التحرير أو محطة جمال عبد الناصر. المخرَج في طرف ميدان فسيح. عند خروجي، يمتد البراح أمامي، وبمجرد أن أضع قدمي على الميدان الفسيح، أتحسس جيبي. أجد أنني نسيتُ هواتفي في الشقة. وتظهر في رأسي الشقة. ليستْ الشقة التي أسكن فيها الآن. ولكنها الشقة التي كنتُ أسكن فيها في بداية زواجي، كأن الزمن رجع للوراء، وكأنني أريد أن ألغي فترة من حياتي، كأن السفر للعمل لا يتمخَّض إلا عن عيون تترصّد كلَّ ما

يخصُّك. لا أتذكر أي رقم هاتف، لا رقمي ولا رقم زوجتي، ولا رقم أي أحد سوى رقم أخ من إخوتي يسكن في الصعيد.

أفكّر أن أشتري رقمَ هاتفٍ جديد، وأشتري هاتفًا لأستعمل فيه الرقم. أجدني أسير في وسط البلد، وأسأل بعض الباعة الذين يبيعون لعب أطفال، ومن بينها ألعاب في شكل هواتف، عن مكان شراء الهاتف وشريحة اتصاله. ومن الواضح أن هذا هو السبب الذي دفعني لأن أسألهم. يقولون لي أنه عليّ أن أسير للأمام قليلا. أحمد الله أن بطاقة الرقم القومي الخاصة بي ما زالت صالحةً، وأن شركة الاتصالات لن تمانع في أن أشتري خط هاتف جديد.

من الواضح أنني اشتريتُ الهاتف والشريحة. لكن فيمَ سأستعملهما وأنا لا أتذكر رقم زوجتي، ولا حتى أي رقم من أرقامي أو أرقام أولادي. فربما إذا تذكرتُ رقمًا من أرقامي يمكنني أن أتصل عليه وستسمع زوجتي الرنين. قد لا ترد في البداية لأن الرقم غير مسجّل على هاتفي. ولكنها سترد في النهاية، على الأقل لتتخلَّصَ من

الرنين المزعج، خاصة وأنها ستدرك أنني خرجتُ دون هاتفي، وقد تفسّر المتَّصِل على أنه أنا وأحاول الاتصال بها عن طريق هاتفي.

أحاول أن أتذكّر رقمي، دون جدوى. أذكر بعض الأرقام فيه، لكنني لا أذكره كاملًا. وأحسُّ بأن عليّ أن أقوم بتجديد بطاقتي بالرغم من أنني متأكد بأن صلاحيتها ما زالت بها سنتان على الأقل. أتذكّر أنني عليّ أن أذهب لجامعتي الأصلية التي أعمل بها في تلك المدينة البعيدة حتى أحصل على توقيعها على استمارة استخراج البطاقة، تلك الجامعة التي تتعنت معي حتى في التوقيع على استمارة استخراج البطاقة، لا لشيء إلا لأنني تقدمت بشكوى للمحكمة ضدها لأنها تمانع في منحي إجازة وجوبية قانونًا. وأحس بأن المشوار ثقيل، وأنه لا يمكنني أن أذهب دون بطاقتي، فأكتشف أن أوراقي التي في محفظتي تخص البلد التي أعمل فيها حاليا، ولا توجد معي أوراقي الثبوتيّة المصرية. ولا تسلني كيف استطعتُ أن أشتري شريحة الهاتف مع أنني أذكر أنني اشتريتها ببطاقتي المصرية! فلقد كانت معي بطاقة هويتي

المصرية منذ قليل بالفعل. لكن من الواضح أن لغة الأحلام لها منطقها الخاص.

أتوجّه لمكان ما، من الواضح أننا نستخرج بطاقات الرقم القومي الجديدة منه. ولكنه مكان غير مجمع التحرير، ولا أعرف إن كان بإمكاني أن أستخرج البطاقة من مجمع التحرير أم لا. مكان أشبَهُ بباب اللوق، أو مكان قريب من العتبة. أسأل أحد الأشخاص عن حاجتي إلى استخراج البطاقة، وأؤكد له أنني لا أريد أن أحدّث بياناتها، فلا حاجة لي إلى إضافة بيانات جديدة، وفي رأسي أن عدم الحاجة إلى تحديث البيانات سيُعفيني من الحاجة إلى الذهاب لتلك المدينة البعيدة التي أعمل بها. وبالفعل يؤكد لي إنني لستُ في حاجة للذهاب إليها. فيمكنني أن أذهب، لتوقيع الاستمارة، إلى ذلك المبنى بعد شراء استمارة استخراج بطاقة رقم قومي، ويشير بيده إلى مبنى عالٍ يبعد عنّا قليلًا، نصف كيلومتر تقريبًا. أتحرّك نحو المكان ويتحرّك الرجل الذي سألتُه معي. وأفهم من السياق أنه يمكنه أن يساعدني في ذلك، وأن يساعدني في استخراج البطاقة ذاتها. أستبشر، وأنا أنوي أن أجازيه بمبلغ محتَرَم

من المال. فيتركني وهو ينادي على شخص، ومن الواضح أنه ذاهب إلى ذلك المبنى لاستكمال إجراءات استخراج بطاقتي.

أعود لأنتظره في المبنى الذي قابلتُه فيه في البداية، وهو المبنى الذي سيتم منه استخراج البطاقة في الغالب، كما أفهم من السياق. أجد أختي الصغرى الحاصلة على دكتوراة في الأدب مثلي جالسةً على أحد المقاعد في مدخل الدور الأرضي، على يسار الباب. أرحِّبُ بها وأسألها عن سبب وجودها. في الغالب تقول لي أنها لا تعرف إن كان عليها أن تَدْرس الرياضيات أو شيئًا آخر الآن أم تؤجل الدراسة لوقت لاحق. أو ربما كان سؤالها أنها من المفترض أن تدرس لاحقا، وتسألني:

هل من الأفضل أن أدرس الآن؟

أستغرب من حاجتها إلى دراسة مجال جديد، ومن حماسها للدراسة، مع أنها كانت تحدثني من قبل عن عدم قابليَّتها للقيام بأي شيء الآن، أو أنها تشبّعتْ وأصابها الإحباط من كل شيء. أستبشر وأشجّعها على التبكير بالدراسة؛ فخير البر عاجله.

أتذكّر الرجل الذي ذهب. وأحسُّ بأنني لا بد أن يكون معي مال كافٍ. أنظر في محفظتي، وأجد أن المال الذي معي قليل لا يتعدى بضعة مئات من الجنيهات. تطمئنني أختي وتقول إن معها مال يكفي. أتذكَّرُ أحلامًا قديمة بأنني في بلدتي الريفية في الأعياد، وعليّ أن تكون معي آلاف الجنيهات حتى أقضي إجازتي مع أهلي في الريف. وأبحث في حقيبتي، فأكتشف أنني نسيتُ الدولارات في شقتي في الجيزة. لكن هذا لا يقلقني الآن؛ فأنا في الجيزة بالفعل، أو على الأقل يمكنني بعد ساعة أو ساعتين أن أصل إليها.

أجد أختي تريني ملابس جديدة قد اشترتْها منذ قليل. ويزداد إحساسي بالشتاء وجوّه المنعش وحميميته، ونحن نسير في الشارع المجاور للمبنى الرسمي. أسأل أختي عن الملابس، فتقول لي إنها اشترتها لابنتها في الغالب. طاقم ملابس لونُه بيج عبارة عن قميص وبنطلون في الغالب. أسأل نفسي: لماذا لا تلبس أختي هذه الملابس الآن؟ لماذا تؤجل ارتداءها إلى وقت لاحق أحسُّ بأنه بعيد؟

لا يظهر الرجل الذي ذهب لاستكمال إجراءات استخراج بطاقة الرقم القومي. لا أعرف إن كان قد نسي الموضوع أم أن شيئًا ما أخّره. لكنني لا أقلق؛ فأحسُّ أنني بأمان، وكأنني استخرجتُ البطاقة بالفعل، أو لا يهم إن كنتُ استخرجتُها أم لا، فأنا متأكد من أنني عندما أعود إلى زوجتي وشقّتي القديمة، سأجد بطاقتي هناك، ولم أنسَها في بلد الغربة الذي أعمل به. أطلب من أختي رقم هاتفي ورقم هاتف زوجتي، وأتصل على زوجتي لأطمئِنَها وأطمئِنَّ عليها.

نسير أنا وأختي في الشارع الذي أحسُّ باتساعه، كما أحسُّ بأنه يعطينا الإحساس بالبراح، منطقة قديمة تُحسُّ فيها بالألفة، وبأنك تحب هذا المكان، وبأن المكان غير مزدحم، وبأن القليلين الذين يسيرون في المكان غير غرباء، بمعنى أنك تعرفهم بشكل أو بآخر. وحتى إن كنتَ لا تعرفهم معرفة شخصية، فهم من أهل المكان وتحسُّ بأن وجودهم طبيعي، بالرغم من وجود ذلك المبنى الرسمي الذي يأتيه الناس من كل مكان، وبالرغم من أن المكان ذاته ليس مكاني أنا

وأختي؛ فهذا المكان في القاهرة ونحن نسكن في الجيزة، ولكننا نحس بأنه مكاننا.

أجد أختي تُخرج القميص الجديد الذي تحوّل لونه إلى ما بين الأخضر والليموني، ويبدو لونه وأسلوبه رقيقًا وأنيقًا، وتبدأ في لبسه فوق ملابسها في الشارع، وكأنها تقول: لماذا لا ألبسه أنا الآن، وعندما يحين ذلك الموعد الآخر أشتري ملابس جديدة أخرى؟

أستبشر بالفكرة ونكمل سيرنا، كأننا لسنا في حاجة إلى شيء، دون أن نقلق أو نتوجّس من المستقبل.